



وبنتا للشفاء وأقاسيص الهوى والشباب ؛ فقد غدا
عليهم « رفيق » يؤذنههم بخبر لم يكن لهم في حساب ؛
لقد اعتزم رفيق أن يتزوج ...

وأصفا ! لم يكن يحسب هؤلاء الأصحاب أن يصير
اجتماعهم بمد تلك الحنين إلى شتات ، وأن يكون رفيق أسبقهم
إلى الفراق ! ... أترأه يكون لهم بمد الزواج ما كان لهم قبله ؟
من يدري ؟ بل إنهم ليكادون يدرون ؛ فما يتأتى له أن يلقاهم
بمد وبلقونه ، وإنه زوجٌ وربُّ دار ...

وتناولوه بألسنتهم وركبوه بالزجاج والدمابة ، وهو يستمع
إليهم مبتسماً في سمات ، ثم مضى ومضوا ...

لقد ذاق رفيق من ألوان اللذات ما ذاق ، وباع في الحب
واشترى ، ورجح وخسر ، وتقلب على عينيه مناظر لعل مثلها
لم يجتمع لشاب آخر في مثل سنه ؛ على أنه قد ملَّ ذلك جميعاً
وضاقت به نفسه ، وحنَّ إلى حياة هادئة يجيهاها بين زوجٍ تحنو
عليه ، وولد يمجده أمه ؛ فاعتزم أن يتزوج

وأتاح لرفيق ما لقي من تجارب الحياة ، أن يعرف من شئون
المرأة أكثر مما يعرف للشباب ؛ فلم يكن تمنجه فتاة ممن رأى
وعرف فيرضاهما زوجة يملكها داره ويأتمنها على سعادته ؛ إذ كان
يعرف أكثر من غيره ما وراء هذه القشور التي يتزين بها النساء
في مجالس الرجال تجملاً من غير جمال ؛ فزاح إلى أمه المعجوز
بما لها أن تختار له ويعصف لها ما يحب في المرأة وما يكره .

وكان هجيباً من فني مثل رفيق - رأى من رأى وعرف
من عرف - أن يتوسل بأمه إلى اختيار زوجته ؛ ولكن ما رأى
وما عرف هو الذي دعاه إلى ذلك ؛ فقد كان مما جرب لا يثق
بواحدة ممن عرف ؛ فراح يتوسل بأمه أن تكون سيده إلى
من لم يعرف

تلك مسألة أخفاها رفيق على صحابه ، ولو عرفوها لنسبوه
إلى فساد الرأي وأقن للتفكير ؛ فإبني نفسي مثله من أبناء الجيل
الجديد أن يخطب فتاة إلى نفسها من وراء حجاب ، وأن ينظر
إلى زوجته ببيني أمه ؛ ولكنه كان موقفاً يقيناً لا شبهة فيه ،

لقاء ...!

للأستاذ محمد سعيد العريان

—•••—

كان اللنديُّ مندمجاً بالسامريين على عادته كل مساء ؛ قد
تخلَّقوا حول الموائد جماعات جماعات ، في البهو ، وفي الشرفات ،
وعلى الطوار ؛ وكان الميدان الفسيح الذي يشرف عليه اللنديُّ ،
سرادق السيون ومستراح النظر ؛ فما تقع العين منه إلا على منظر
أنيق وصرأى فائن ، واللميارات تنهذى ذاهبة آية تحمل كل
منها قصة حب أو نيسر حديث هوى ، وأسراب الملاح
تتواكب في مطارف الفتنة وعطر الشباب فادية إلى سيماد
أو رائحة إلى أمل ، ونسيم المساء الهادي ينفخ عطره وبهمس
في كل أذن حديثه ...

... وكان نمة بضمة نفرٌ جلوساً إلى مائدة مستديرة في ظل
وارفة لفاء يجاذبون الحديث ويتبادلون الفكاهات في أنس
ومسرة . أولئك « رفيق » وأصحابه

بضمة نفر لا يشغلهم من هم الحياة ما يشغل الناس ، جمعهم
الشباب على هوى مشترك ، وألفت بينهم الحياة على رأي جميع ،
واجتمع لهم من أسباب النعمة ما أفتى بعضهم عن بعض فتقرب
بعضهم إلى بعض ؛ فهم قدّموا واحدة بكل سبيل ، وقلب واحد
في كل هوى ، ورأى واحد في كل مناصرة من مناصرات
الشباب . ذلك مجلسهم كل مساء حيث يلتقون فيقص بعضهم
على بعض من حديث الهوى والشباب ؛ فلكل فتاة من فتيات
المدينة بينهم حديث ؛ ولكل منهم من حديثها خبر ، ولكل فادية
ورائحة لحظة عين وابتسامة شففة

على أن رفيقاً وأصحابه لم يجتمعوا الليلة لئلا ما يجتمعون
كل مساء ؛ فإن لهم اليوم لقاء يشغلهم من لحظات السيون

وأناه جواب ما سألت ؛ ولم يبق إلا أن يراها ليُبرم أمره ؛ وأى حرج في ذلك ؟

وعادت أمه تسمى مسماها بينه وبين عمره ؛ ثم عادت تحمل إليه الإذن في أن يراها يوم يقدم لها هدية الخلعبة

... لم ينقطع رفيق عن صحابته ولم يشغل أمره عن مجلسه وإيام كل مساء ؛ فإذ كانت له طاقة على نراق بائن إلى غير لقاء ؛ وكذلك لم يهجر ما كان من عادته وإيام حين يتحلقون حول المائدة المستديرة على الطوار ، يتجادلون الحديث أو يتبادلون الفكاهات ، أو يُبعمون أهيمنهم كل غادية إلى عمل أو راحة إلى ميماد ، أو يتداعون إلى سهرة حمراء في عُش من عشاش الحب المأجور إلى أن تشيب ذؤابة الليل !

كان يعلم أنه مما قایل مفارق هذه الحياة الصاخبة التي عاش فيها عمرًا من عمره ؛ فلا عليه أن يتزود لما يأتي من ليلاليه ، لا يمنه عن ذلك ما يشغله من أمر يمد له عدته ويهيئ أسبابه ... وتوزعته شتونه ، فبهاه تأهب واستعداد ، وليله ليل الهوى والشباب ! أرايت إلى الصائم يتأهب لنهار ظمى جوطان بالمائدة الحافلة بأطياب الطعام والشراب ؟ كذلك كان رفيق في إسرائه على نفسه وفي غلبة هواه !

وراح يوماً لموعده يجلس بقص هل صحابته من مقاماته : « ... وكنت وحدي إلى هذه المائدة أنتظر ، وظاظني أنني بكرت فلم أجد أحداً منكم آنس إليه ، وتحايكت ليني فناة على مبعدة ... ثم تجاوزتني ومضت ؛ ومضت في أرضها ... »

وتقصف عليه أصحابه يستمعون إليه ؛ فإنه لغارس هذا الميدان غير منازح ، ومضى في قصته :

« ... وقلت لها وهي جالسة إلى جانبي على للصخرة النائثة والأمواج تحت أقدامنا تصفق على الشاطئ المضبان : « إنك أول من أحببت ... » فنظرت إلى ساخرة وقالت : « صحيح ... ؟ » ثم انفجرت ضاحكة . قلت : « وما يمنع ... ؟ » قالت وتكاد تقص بضحكتها : « تلك كلمة ليست جديدة على أذني ،

أن تلك الوسيلة التي ينسبها أصحابه إلى الرجعية وفساد الرأي وأفن للتفكير ، هي أسد وأحكم من اختيار فناة كيمض من يرف ، تقلبت على أعين الثعبان وتنقلت بينهم من ذراع إلى ذراع كجارية للنخاس !

لو أن أحداً رأى له هذا الرأي منذ سنين ، لسخر منه واستهزأ به ورماه بما يرميه به صحابته اليوم ؛ ولكن تجارب الحياة لا تدع لذي رأي أن يثبت على رأيه إلا أن يكون أحق ليس له رأي ولا إرادتها !

وراحت أمه المعجوز في حاشية من سواحها تطرق الأبواب وتهتك الأستار لترى وتعرف وتتخير ، لتعود إلى ولدها كل مساء تقصص عليه ما رأت وما عرفت ؛ وكانت تعلم من شئون ولدها ما لا يجمل أحد ؛ فن ذلك كان حرصها على أن تتخير له فتحمن الاختيار ؛ وعادت إليه ذات مساء تحبزه :

لو رأيتها يا رفيق ... لها خيرة الصبح الطالع ، وابتسامة الأمل المشرق ، وحياء الزنقة للبيضاء تحت عيون الزهر ... لله هي يا بني ! خار الله لك !

وقال رفيق : وددت لو رأيتها يا أمي !

ومطت أمه شفيتها تنكر عليه ، وقالت : وددت يا بني ، ولو أنك رأيتها ما زلت في هديك على ما أصفد ؛ ولكن ، من أين لك ؟ ما أرى أبها يسمع يا رفيق ، ولو سمح أبوها ما أطاقت هي أن تتراوى لك ... إنها ...

وصمت رفيق وماوده قلب الشباب ، وراح يؤامر نفسه : كيف بطبق أن يقطع رأي في المرأة التي يهيم أن يشركها في عمره وما رآها ؟

ثم ثابت نفسه إلى الاطمئنان والرضا رويداً رويداً ، وغلبه عقله على هواه ؛ فقال لنفسه : ذلك أحب إلي ؛ وإن يقيني بطهارتها لأطيب لنفسى من اليقين بجمالها ؛ وهل رضيت أن أخطبها من وراء حجاب إلا زهادة في الجمال للبدول لكل ناظر ؟

وذهب رفيق بتقصي خبرها ويسأل من يعرف عما لا يعرف ،

وجهاً لوجه وتتناهى الميون ! فسأل نفسه : أتراني عشقتُها ؟

ثم جاء الميعاد ...

وسبق للبشيرُ يؤذن بمقدمه ؛ وجلست فتاةٌ تنتظر ،
وفي رأسها أخيلةٌ تترامى وفي قلبها أمل ...

وقال رفيقٌ لنفسه والسيارة تقفله إلى هناك : ينبغي أن تكون
هي أول من أحب ؛ أليس كذلك ... ؟ بلى ، ومن ذا يستحق
الحب غير الفتاة التي أمم أن تشركني في سُحري ؟

وقالت الفتاة لنفسها وهي جالسةٌ مجلسها تنتظر : نعم ، ولن
تهب الفتاة قلبها غير الشاب الذي تشركه في عمره ؟

ودق الجرس ، ودخل رفيقٌ تسبقه البشري . وعلى الكرسي
المذهب في صدر غرفة الاستقبال جلس ينتظر ، وكان إلى جانبه
كرسيٌ خال ؛ ثم انفتح الباب ودخلت ...

وترايا وجهاً لوجه ، وعرفها وعرفته ... وهم الفتى أن
يقول : « أنتِ أول من ... » ثم سكت ؛ وتهبَّت الفتاة لتقول ،
ثم سكتت ...

ودوي في أذنيه مثل هدير الموج يتوالب رشاشه إلى وجهه ،
ودوي في أذنيها ؛ كجلسهما هناك في يومٍ قريب ... وطأطأت
الفتاة رأسها في خزي ، وطأطأت الفتى رأسه ؛ ونقل على الفتى والفتاة
موقفهما ، وأحسَّ مواقع النظرات تأخذها من كل جانب ، فشيا
سامعين إلى مجلسيهما ؛ وتبادلا نظرةً أخيرةً أغنتهما عن الكلام .
ولم تتحرك شفثاه بكلمة ، ولكنها سمته يهمس في أعمقها
ساخراً : « أنتِ أول من أحببت ا ا »

ولم تنطق شفثاها ، ولم تجب ؛ ولكن صوتاً من أعماق اللامني
كان يهمس في نفسه : « ... تلك كلمة ... كم سممتها أذني قبل
أن تلفظها شفثاك ا ا »

وتحوّل وجهه إلى ناحية وهو يقول : « ولكنك لن تسمعيها
بمد ، ولن أقولها ا ا »

وراحت أصابعه تمبث بمجبات المقعد اللغالي فتتناثر على البساط
كأنها حصيات من رمل الساحل ؛ وعاد هدير الموج يدوي
في أذنيه ويتوالب رشاشه إلى وجهه ؛ ونهض ، ثم أخذ طريقه
إلى الباب في صمت ا ... محمد سعيد العريانه

كم مرة سممتها قبل أن تلفظها شفثاك ا ؛ وحدقت في وجهي
بينين فيما تصميم وإرادة ، كأنما تتحداني لتبلى إرادتي ، وزويت
جيبني وتحوّلت ناحية أنظر إلى رشاش الماء يتوالب تحت أقدامنا
وقلت : « ولكنك لن تسمعيها بمد ، ولن أقولها ا ا » ... ورحت
أجمع طائفة من الحصى فأقذفت بها للماء وأصابعي ترتعد ؛ إذ لم يكن
يمتني إلا أن أثار لكبريائي ...

قال رفيقٌ : وتخاذلت سريعاً حين رأيت وجهي مصروفاً عنها ؛
فدنت مني وهي تقول : « أنظر ، أترى هذين الطائرين ؟ » ونظرتُ
ونظرتُ ، والتفت عينان بينين ، وشفثان بشفتين ا ... ثم ...

قال الذي عن يمينه : ثم صحت من النوم ا
وعَلتُ سخكاتُ الجماعة ، وسكت رفيق ، ومضى أصحابه
بتجاذبون الحديث ...

... ودنا الموعد الذي حدده رفيق ليلتي عمروسه فيقدم لها
هدية الخطبة ؛ وكأنما أحب أن يهي نفسه لهذا الحدث الجديد ،
فانقطع أياماً عن موعد أصحابه ، ومضى يزور في نفسه الكلام
الذي يلقى به خطيبته يوم بلانها ؛ أترام كان يخشى أن يخونه
بإزائها بيانه وخلابته وما يميز قلبها في مجلس فتاة قط ؟ ترى
ما ذا يقول للناس في هذا المقام ؟ وتواردت على خاطره كلمات
كثيرة ، كلمات طامسا جرى بها لسانه في مجالس الفتيات فكان
لها في نفوسهن فعل للسحر ؛ ولكنها جميعاً على لياقتها في هذا
المقام وصدقها في التفسير عن حقيقة موضعها ، لم ترُق له ؛ كأنما
كان ينزه لسانه في خطابها أن بلقاها بكلمة لم ينطقها قط
إلا كاذباً ولم يلقى بها قط فتاة تستحق الاحترام ا

وأعجزه القول حين وجد الحاجة إليه ، إذ كان كل جديد
في لغة الحب الصادق قد حال في لسانه عن معناه الحقيقي إلى معنى
وضيع من معاني الخداع والنش والتفريز ؛ فاثمة إلا كلام ياله
قد أخلفه التكرار ، أو كلام ضاغط قد نسخه الكذب وأحاله
عن معناه ... ا

وسحك رفيق حين أحس من نفسه للجزع مما يزيد ، وخطر
بباله حديث الناس عن عجز المحبين عن التعبير حين يتراعى الماشقان